الزكـاة والصدقـات

□ الزكاة والصدقات □

اعلم يا أخي ، أن الجود على ألسنة الورى محمود .

ليس يعطيك للرجاء أو الخو ف ولكنْ يَلَذّ طعم العطاءِ

فاشكر من أمات غيرك بالعدم وهو حي وأنشرك .

وما قدر كِسرة تعطيها ، أو ما سمعت أن الربَّ يربيها ، فيراها صاحبها كجبل أُحُد ، أفيرغب عن مثل هذا الخير أحد ؟

واعجبًا لِلُقْمةٍ كانت قليلة فكثرتْ ، وفانية فبقيتْ ، ومحفوفة(١) فحفظتْ ، أما علمت أن الصدقة إذا صدقت في إخراجها نفس تقيّ ، تقي ميتة السوء ، وتطفىء غضب الربِّ .

إن اللقمة إذا أكلت صارت أذى وقبائح في الحش ، وإذا تُصدق بها صارت إذًا مدائح عند العرش .

إن تطوعات البدن لا تتعدى المتَطَوِّع ، وإنَّ نفع الصدقة متعدد متنوع .

إن مقيمَ جسد الفقير بأسباب صِلاته ، شريك له في ثواب صلاته .

ومن فطرّ صائمًا قد صبر إلى عشائه من فجره ، فله مثل أجره .

إن الصدقة سريعة الخلف ، وحافظة بعد الموت للخلف .

واعلم أن إنفاق حبة ، يثمر لك الوفاق والمحبة ﴿ **في كلِّ سُنبلة مائة حبة** ﴾ [البقرة : ٢٦١] .

ثم قَدّر أنك لا تثاب على هذه اللقمة ، أين الحنوّ على الأخ والرحمة ؟ هان على الأملس ما لاقى الدَّبر(٢).

---

(١) حفّ الشمع : ذهب ، محفوفة أي زائلة .

(٢) يضرب مثلًا في سوء اهتمام الرجل بشأن صاحبه .

قد كان حاتم الطائيّ كافرًا ، وكان يطعم حاضرًا ومسافرًا ، فإذا فضلت لقمات ألقاهنّ على الرمل . وقال : إنهن جاراتٌ – يعني النمل – .

كان الصالحون يثورون إلى الإيثار وأنت رصاصة[1] ﴿ **ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة** ﴾ [الحشر : ٩] .

كانَ الكرامُ وأبناءُ الكرام إذا تسامعوا بكريمٍ نالَهُ عدمُ
تسابقوا فيواسيه أخو كرمٍ منهم ويرجع باقيهم وقد نَدمُوا
فاليوم صاروا يعدون الندى سرفًا وينكرونَ على المعطي إذا علموا

فالزم فعل الخير مكانك ، وأطعم البُرَّ إمكانك ، وأقرضْ رَبَّكَ فقد ربَّك ، وعامل مولاك بما أولاك ، ولا تردنّ سائلًا بلا ، فإنه موت عنده بل بِلَى . ولا تكن من البخلاء ، وقانا الله وإياك أدوى داء .

خُلقوا وما خلقوا لمكرمةٍ فكأنهم خُلِقوا وما خُلِقُوا
رُزقوا وما رُزقوا سماحَ يدٍ فكأنهم رزقوا وما رزقوا

واعلم أخي أنه لا يقول المجد : واطرباه حتى يصيح المال : واحرباه .

هيهات أن يسمن المدح حتى يُهزلَ الكِيسُ .

يُعنى البخيلُ بجمعِ المالِ مدتهُ وللحوادثِ والورّاثِ ما يدعُ
كدودة القزّ ما تبنيه يهدمها وغيرها بالذي تبنيه يَنْتَفِعُ

ويقول القائل :

ومنْ ينفقُ الأعمارَ في جمع ماله مخافةَ فقرٍ فالذي فعلَ الفقرُ

أخي ، إنما نلقى ما أسلفنا ، ولا نلقى ما خلّفنا .

يقول محمود الورّاق :

---

(١) أي حجر .

تمتّع بمالك قبلَ المماتِ   وإلا فلا مالَ إنْ أنت متَّا
شَقِيتَ به ثم خلّفته   لغيرك بُعْدًا وسحقًا ومقتًا
فجادوا عليكَ بزور البكا   وجُدت عليهم بما قد جمعتَا
وأوهبتهم كل ما في يديكَ   وخلّوك رهنًا بما قد كسبتَا

ويقول ابن الرومي :

بقّيْتَ مالك ميراثًا لوارثه   فليت شعري ما بَقّى لك المالُ
القومُ بعدك في حالٍ تسرهمُ   فكيف بعدَهمُ حالتْ بك الحالُ
ملّوا البكاءَ فما يبكيك من أحدٍ   واستحكم القيلُ في الميراثِ والقالُ
ولّتهمُ عنكَ دنيا أقبلت لهمُ   وأدبرت عنك والأيامُ أحوالُ

قال تعالى : ﴿ **يمحقُ الله الرِّبَا ويربي الصدقاتِ والله لا يحبُّ كلَّ كفارٍ أثيم** ﴾ [البقرة : ٢٧٦] .

قال الإمام ابن كثير :

وهذا من باب المعاملة بنقيض المقصود ، كما روى الإمام أحمد عن فرّوخ مولى عثمان أن عمر – وهو يومئذ أمير المؤمنين – خرج إلى المسجد ، فرأى طعامًا منثورًا . فقال : ما هذا الطعام ؟ فقالوا : طعام جُلبَ إلينا . قال : بارك الله فيه وفيمن جَلَبَه . قيل : يا أمير المؤمنين ، إنه قد احتكر . قال : ومن احتكره ؟ قالوا : فرّوخ مولى عثمان ، وفلان مولى عمر . فأرسل إليهما فدعاهما فقال : ما حملكما على احتكار طعام المسلمين ؟ قالا : يا أمير المؤمنين ، نشتري بأموالنا ونبيع ! فقال عمر : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يقول : « مَنِ احتكَرَ على المسلمينَ طعامَهُمْ ضربَه الله بالإفلاسِ أو بجذام » فقال فروخ عند ذلك : أعاهد الله وأعاهدك ألا أعود إلى طعام أبدًا . وأما مولى عمر فقال : إنما نشتري بأموالنا ونبيع . قال أبو يحيى : فلقد رأيت مولى عمر مجذوما[1] .

(١) تفسير ابن كثير (١ / ٤٨٧) .

﴿ يمحقُ اللهُ الرّبا ويربي الصدقات ﴾ [البقرة : ٢٧٦] .

وصدق وعيد الله ووعده ، فها نحن أولاء نرى أنه ما من مجتمع يتعامل بالربا ثم تبقى فيه بركة أو رخاء أو سعادة أو أمن أو طَمأنينة ، إن الله يمحق الربا ، فلا يفيض على المجتمع الذي يوجد فيه هذا الدنس إلا القحط والشقاء . وقد ترى العين – في ظاهر الأمر – رخاءً وإنتاجًا وموارد موفورة ، ولكن البركة ليست بضخامة الموارد بقدر ما هي في الاستمتاع الطيب الآمن بهذه الموارد .

وهذه الشقوة النكدة التي ترى على قلوب الناس في الدول الغنية ، وإلى القلق النفسي الذي لا يدفعه الثراء بل يزيده. ومن هذه الدول يفيض القلق والذعر والاضطراب على العالم كله اليوم . حيث تعيش البشرية في تهديد دائم بالحرب ، وتثقل الحياة على أعصاب الناس ، ولم يبارك الله لهم في مالٍ ولا في عمر ولا طمأنينة بالٍ .

وما من مجتمع قام على التكافل والتعاون ، الممثلين في الصدقات المفروض منها والمتروك للتطوع ، وسادته روحُ المودة والحب والرضى والسماحة ، والتطلع إلى فضل الله وثوابه ، والاطمئنان دائما إلى عونه وإخلافه للصدقة بأضعافها ، ما من مجتمع قام على هذا الأساس إلا بارك الله لأهله– أفرادًا وجماعاتٍ– في أموالهم ورزقهم ، وفي صحتهم وقوتهم وفي طمأنينة قلوبهم وراحةِ بالهم .

والذين لا يرون هذه الحقيقة في واقع البشرية ، هم الذين لا يريدون أن يَرَوْا ، لأن لهم هوًى في عدم الرؤية ! أو الذين رانت على أعينهم غشاوة الأضاليل .

يقول الفخر الرازي : وأما إرباء الصدقات ، فيحتمل أن يكون المراد في الدنيا ، وأن يكون المراد في الآخرة إن من كان لله كان الله له(١) .

إن الصدقة تُحيي قلب المؤمن فيزكو ، ويزداد صلة بالله ، ويزكو ماله

(١) التفسير الكبير للفخر الرازي (٣ / ٦٥٨) .

كذلك ، ويضاعف له الله ما يشاء ، وكما تزكو حياة الجماعة المسلمة بالإنفاق وتصلح وتنمو ﴿ **مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسعٌ عليم** ﴾ [البقرة : ٢٦١] .

في موكب الحياة النامية الواهبة يتجه بالضمير إلى البذل والعطاء ، إنه لا يعطي بل يأخذ ، وإنه لا ينقص بل يُزاد ، إن الله يضاعف لمن يشاء ، يضاعف بلا عدة ولا حساب ، يضاعف من رزقه الذي لا يعلم أحد حدوده ، ومن رحمته التي لا يعرف أحد مداها ، والله واسع لا يضيق عطاؤه ولا يكف ولا ينضب .

فتعال إلى الإنفاق في سبيل الله الذي يرفع المشاعر ، الإنفاق الذي ينبعث عن أَرْيَحِيَّة ونقاء ، ويتجه إلى الله وحده ابتغاء رضاه .

عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : « قال الله عز وجل : أَنْفِقْ أُنفِقْ عليك »[1].

قال المناوي : قال الله عز وجل : « أَنفِق » على عباد الله ، «أُنْفِق عليك » أعطيك خلفه ، بل أكثر منه أضعافا مضاعفة ﴿ **وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه** ﴾[2] [سبأ : ٣٩] .

قال الطيبي : هذا مشاكلة ؛ لأن إنفاق الله لا ينقص من خزائنه شيئًا ، وهذا ظاهر ؛ لأنه إذا أنفق ظهر بصورة الفقر والعبودية والسخاء ، فاستحق نظر الحق إليه من جهة فقره الذي لا بد من جَبْرِه ، ومن جهة مقابلة وصفه بوصف ربه وظهور معاني أسمائه ، فكأنه قال لعبده عند إنفاقه : أتتسخى عليّ وأنا خلقت السخاء ؟ . وقد امتثل المصطفى ﷺ أمر ربه ، فكان أكثر الناس إنفاقا ، وأتمهم جودًا .

« أنفق أُنفق عليك » والجزاء من جنس العمل .

---

(١) رواه أحمد في مسنده والبخاري ومسلم .

(٢) فيض القدير للمناوي (٤ / ٤٨٠) .

عن أسماء بنت أبي بكر - رضي الله عنهما - قالت : قال رسول الله ﷺ : « أعطي ولا توكي ، فيوكَى عليك »[١] .

« أعطي » بإثبات الياء خطابًا لأسماء بنت أبي بكر ، « ولا توكي » بسكون الياء ؛ أي لا تدخري ولا تربطي الوكاء ، وهو الخيط يربط به . « فيوكى عليك » بسكون الألف ، قال ابن حجر : هو عند البخاري بفتح الكاف ولم يذكر الفاعل ، وفي رواية له « لا تحصي فيحصي الله عليك » فأبرز الفاعل .

والإيكاء : شد رأس الوعاء بالوكاء ، وهو مجاز عن الإمساك ، فالمعنى : لا تمسكي المال في الوعاء ، وتوكي عليه ، فيمسك الله فضله عنك ، كما أمسكت فضل ما أعطاك الله ، فإن الجزاء من جنس العمل ، ومن علم أن الله يرزقه من حيث لا يحتسب ، فحقه أن يعطي ولا يحسب ، وفيه النهي عن منع الصدقة خشية النفاد ، وأنه أعظم الأسباب لقطع مادة البركة وأنه تعالى يثيب على العطاء بغير حساب[٢] .اهـ .

قال رسول الله ﷺ : « تصدقي ولا توعي ، فيوعى عليك »[٣] .

وقال ﷺ : « لا توعي فيوعي الله عليك ، ارضخي ما استطعت »[٤] .

وقال ﷺ : « لا تُوكي فيوكى عليك »[٥] .

قال ابن حجر : يقال : أوعيت المتاع في الوعاء إذا جعلته فيه ، ووعيت الشيء حفظته ، وإسناد الوعي إلى الله مجاز عن الإمساك .

إن الله يثيب على العطاء بغير حساب ، ومن لا يحاسب عند الجزاء لا يحسب عليه عند العطاء[٦] .

---

(١) صحيح : رواه أبو داود وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (١٠٧٢) .

(٢) فيض القدير للمناوي (١ / ٥٦٣) .

(٣) رواه البخاري .

(٤) رواه البخاري والترمذي .

(٥) رواه البخاري والترمذي .

(٦) فتح الباري (٣ / ٣٥٢) .

قال الشيخ عبد العزيز بن باز معلقًا على قول الحافظ ابن حجر : وإسناد الوعي إلى الله مجاز عن الإمساك .

هذا خطأ لا يليقُ من الشارح ، والصواب إثبات وصف الله بذلك حقيقة ، على الوجه اللائق به سبحانه كسائر الصفات ، وهو سبحانه يجازي العامل بمثل عمله، فمن مكر مُكر به، ومن خادع خدعه، وهكذا من أوعى أوعى الله عليه. وهذا قول أهل السنة والجماعة فالزمه تفز بالنجاة والسلامة ، والله الموفق . اهـ .

وعن أسماء رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ: « ارضخي ما استطعت ، ولا تُوعي فيُوعي الله عليك »[١] .

الرضخ : العطاء اليسير .

والخطاب لأسماء بنت أبي بكر ، أي أنفقي بغير إجحاف ولا إسراف . ما دمت قادرة مستطيعة للإعطاء .

« ولا توعى » تمسكي المال في الوعاء .

والإيعاء : حفظ الأمتعة بالوعاء ، وجعلها فيه ؛ أي لا تمنعي فضل المال عن الفقراء « فيوعي الله عليك » أي يمنع عنك فضله ، ويسد عليك باب المزيد ، فهذا من باب المقابلة . والجزاء من جنس العمل .

وفيه : النهي عن منع الصدقة خوف الفقر .

وعن أسماء أيضًا قالت : قال رسول الله ﷺ : « أنفقي ولا تحصي ، فيُحصي الله عليك ، ولا تُوعي فَيوعي الله عليك »[٢] .

قال المناوي :

---

(١) رواه مسلم والنسائي عن أسماء بنت أبي بكر .

(٢) رواه أحمد والشيخان .

« أنفقي » أي تصدقي يا أسماء بنت أبي بكر الصديق ، « ولا تحصي » لا تُبقي شيئًا للادخار ، أو لا تعدي ما أنفقتيه فتستكثريه ، فيكون سببًا لانقطاع إنفاقك . « فيحصي الله عليك » ؛ أي يقلل رزقك بقطع البركة ، أو بحبس مادته ، أو بالمحاسبة عليه في الآخرة .

قال النووي : يمنعك كما منعتِ ، ويقتّر عليك كما قترت ، ويمسك فضله عنك كما أمسكته[1] .

« ولا توعي » أي لا تحفظي فضل مالك في الوعاء وهو الظرف ، أو لا تجمعي شيئًا في الوعاء وتدخريه بخلًابه . « فيوعي الله عليك » أي يمنع عنك مزيد نعمته .

عبر عن منع الله بالإيعاء ليشاكل قوله : « لا توعي » .

والإحصاء : معرفة قدر الشيء وزنًا أو عدًّا ، أو كيلًا .

وكثيرًا ما يراد بالإنفاق في كلام الشارع الأعم من الزكاة والصدقة ، فيشمل جميع وجوه الإنفاق من المعارف والحظوظ التي تكسب المعالي ، وتنجي من المهالك[2] .

« ولا تحصي فيحصي الله عليك » ، والجزاء من جنس العمل .

قال رسول الله ﷺ : « أنفق يا بلالُ ! ولا تخشَ من ذي العرش إقلالًا »[3] وفي رواية « أنفق بلالًا ... » .

---

(١) شرح النووي لمسلم (٣ / ٦٩) .

(٢) فيض القدير للمناوي (٣ / ٦١) .

(٣) صحيح : رواه البزار عن بلال وعن أبي هريرة ، والطبراني في الكبير عن ابن مسعود وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٥٠٨ ، وتخريج المشكاة برقم ١٨٨٥ . وحسن إسناده ابن حجر في زوائد البزار ، كما قال المناوي : وأطلق الحافظ العراقي أن الحديث ضعيف من جميع طرقه لكن قال تلميذه الحافظ ابن حجر في زوائد البزار : إسناد حديثه حسن . وحسنه الهيثمي ، انظر فيض القدير (٣ / ٦١) .

قال المناوي : « لا تخش... إقلالًا »؛ أي فقرًا من قلّ بمعنى افتقر ، وما احسن من ذي العرش في هذا المقام ؛ أي أتخاف أن يُضيع مثلك من هو مدبر الأمر من السماء إلى الأرض ؟ كلا .

وإنما أمره بذلك ؛ لأنه تعالى وعد على الإنفاق خلفًا في الدنيا وثوابًا في العقبى ، فمن أمسك عن الإنفاق خوف الفقر فكأنه لم يصدق الله ورسوله .

قال الطيبي : وما أحسن ذكر العرش في هذا المقام .

قال الغزالي : قال سفيان : ليس للشيطان سلاح كخوف الفقر ، فإذا قبل ذلك أخذ بالباطل ، ومنع من الحق ، وتكلّم بالهوى ، وظنّ بربه السوء .

قال تعالى : ﴿ **قل إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين** ﴾ [سبأ : ٣٩] .

يقول ابن كثير في تفسيره :

مهما أنفقتم من شيء فيما أمركم به وأباحه لكم ، فهو يخلفه عليكم في الدنيا بالبدل ، وفي الآخرة بالجزاء والثواب(١) .

قال الرازي في تفسيره :

أما المؤمن فما ينفقه يخلفه الله ، ومخلف الله خيرًا ، فإن ما في يد الإنسان في معرض البوار والتلف ، وهما لا يتطرقان إلى ما عند الله من الخلف . ثم أكد ذلك بقوله تعالى : ﴿ **والله خير الرازقين** ﴾ وخيرية الرازق في أمور :

ألا يؤخر عن وقت الحاجة .

وأن لا ينقص عن قدر الحاجة .

وأن لا ينكده بالحساب .

وأن لا يكدره بطلب الثواب(٢) .

---

(١) تفسير ابن كثير (٦ / ٥١٠) .

(٢) مفاتيح الغيب (١٣ / ٧ - ٨) .

قال رسول الله ﷺ : « ما من يوم يصبح العباد فيه ، إلا ملكان ينزلان ، فيقول أحدهما : اللهم أعط منفقًا خلفًا ، ويقول الآخر : اللهم أعط مُمسكًا تلفًا »(١).

وقال ﷺ : « أما علمت أن ملكًا ينادي في السماء : اللهم ، اجعل لمال منفق خلفًا ، واجعل لمال ممسك تلفًا »(٢). والجزاء من جنس العمل .

قال الحافظ ابن حجر :

أما الخلف فإبهامه أولى ليتناول المال والثواب وغيرهما ، وكم من متقٍ مات قبل أن يقع له الخلف المالي ، فيكون خلفه الثواب المعد له في الآخرة ، أو يدفع عنه من السوء ما يقابل ذلك .

وأما الدعاء بالتلف فيحتمل تلف ذلك المال بعينه ، أو تلف نفس صاحب المال ، والمراد به فوات أعمال البر بالتشاغل بغيرها .

قال النووي : الإنفاق الممدوح ما كان في الطاعات وعلى العيال والضيفان والتطوعات .

وقال القرطبي : وهو يعمُّ الواجبات والمندوبات ، لكن الممسك عن المندوبات لا يستحق هذا الدعاء إلّا أن يغلب عليه البخل المذموم بحيث لا تطيب نفسه بإخراج الحق الذي عليه ولو أخرجه(٣) .

وقال أيضًا : الجواد إذا همّ بالصدقة انفسح لها صدره ، وطابت نفسه ، فتوسعت في الإنفاق ، والبخيل إذا حدَّث نفسه بالصدقة شحت نفسه ، فضاق صدره ، وانقبضت يداه ﴿ **ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون** ﴾ [الحشر : ٩].

---

(١) رواه الشيخان عن أبي هريرة ، وأحمد وابن حبان في صحيحه ، والحاكم في المستدرك عن أبي الدرداء .

(٢) حسن ، رواه الطبراني في الكبير عن عبد الرحمن بن سبرة ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٣٤٤ .

(٣) فتح الباري (٣ / ٣٥٧ - ٣٥٨) .

قال المهلب : إن الله يستر المنفق في الدنيا والآخرة ، بخلاف البخيل فإنه يفضحه[١] .

يستر المنفق مثلما ستر على الناس بإنفاقه . والجزاء من جنس العمل .

عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « من تصدق بعدل تمرة من كسب طيّب ، ولا يقبل الله إلا الطيب ، فإن الله يتقبّلها بيمينه ، ثم يربيها لصاحبه ، كما يربي أحدكم فَلُوَّه حتى تكون مثل الجبل »[٢] .

وقال ﷺ : « ما تصدق أحد بصدقة من طيّب ، ولا يقبل الله إلا الطيّب ، إلا أخذها الرحمن بيمينه وإن كانت تمرة ، فتربو في كف الرحمن حتى تكون أعظم من الجبل ، كما يربي أحدكم فَلُوَّهُ أو فَصِيلَه »[٣] .

الفَلُوّ : هو المهر ؛ لأنه يُفْلَى ؛ أي يُفْطم ، والجمع أفلاء .

إن العبد إذا تصدق من كسب طيب لا يزال ينظر الله إليها ، يكسبها نعت الكمال حتى تنتهي بالتضعيف ، ويربيها في يمينه حتى تكون أعظم من الجبل .

والجزاء من جنس العمل .

ما نقص مال من صدقة :

عن أبي كبشة الأنماري - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاثٌ أُقسم عليهن : ما نقص مال عبدٍ من صدقة ، ولا ظلم عبد مظلمة صبر عليها إلا زاده الله عز وجل عزًّا ، ولا فتح عبدٌ باب مسألة إلّا فتح الله عليه باب فقر »[٤] .

---

(١) فتح الباري (٣ / ٣٦٠) .
(٢) رواه البخاري ، ومسلم ، وأحمد .
(٣) رواه الترمذي ، والنسائي ، وابن ماجة ، وأحمد عن أبي هريرة ، وهو صحيح .
(٤) صحيح : رواه أحمد ، والترمذي ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣٠٢١ وتخريج المشكاة ٥٢٨٧ .

وعن عبد الرحمن بن عوف قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاثٌ أُقسم عليهن : ما نقص مالٌ قط من صدقة فتصدقوا ، ولا عفا رجل عن مظلمة ظُلمها إلا زاده الله تعالى بها عزًّا فاعفوا يزدكم الله عزًّا ، ولا فتح رجلٌ على نفسه باب مسألةٍ يسأل الناس إلا فتح الله عليه باب فقر »(١) .

وعن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : « ما نقصت صدقةٌ من مالٍ ، وما زاد الله عبدًا بعفو إلا عزًّا ، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله »(٢) .

عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : « ما فتح رجل باب عطية بصدقة أو صلة ، إلا زاده الله تعالى بها كثرة ، وما فتح رجلٌ باب مسألة يريد بها كثرة ، إلا زاده الله تعالى بها قلة »(٣) .

قال المناوي(٤) :

« ثلاث أقسم عليهن » أي على حقيقتهن « ما نقص مال قط من صدقة » فإنه وإن نقص في الدنيا ، فنفعه في الآخرة باقٍ فكأنه ما نقص ، وليس معناه أن المال لا ينقص حسًّا .

قال ابن عبد السلام : ولأن الله يخلف عليه ؛ لأن ذا معنى مستأنف(٥) .

---

(١) صحيح : رواه ابن أبي الدنيا في ذم الغضب ، وأحمد ، والبزار ، وابن عساكر ، وأبو يعلى في مسنده ، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم ٣٠٢٢ .

(٢) رواه أحمد في مسنده ، ومسلم ، والترمذي .

(٣) صحيح : رواه البيهقي في شعب الإيمان عن أبي هريرة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٥٢٢ .

(٤) فيض القدير (٣ / ٢٩٨) .

(٥) معناه أن ابن آدم لا يضيع له شيء ، وما لم ينتفع به في دنياه انتفع به في الآخرة ، فالإنسان إذا كان له داران ، فحوّل بعض ماله من إحدى داريه إلى الآخرة لا يقال ذلك البعض المحول نقص من ماله ، وقد كان بعض السلف يقول إذا رأى السائل : مرحبًا بمن جاء يحول مالنا من دنيانا لأخرانا ، فهذا معنى الحديث ، وليس معناه أن المال لا ينقص في الحس ، وأيضًا الحديث يحتمل أنه لا ينقص في الحس باعتبار المستقبل .

« فتصدقوا » ولا تبالوا بالنقص الحسي ، « ولا فتح رجلٌ علَى نفسه باب مسألة » أي شحاذة « يسأل الناس » أي يطلب منهم أن يعطوه من مالهم ، ويظهر لهم الفقر والحاجة ، وهو بخلاف ذلك ، « إلا فتح الله عليه باب فقر » لم يكن له في حساب بأن يسلط على ما بيده ما يتلفه ، حتى يعود فقيرًا محتاجًا على حالة أسوأ مما أذاع عن نفسه ، جزاءً على فعله ﴿ **ولا يظلم ربك أحدًا** ﴾ [الكهف : ٤٩] اهـ .

والجزاء عند الله من جنس العمل .

وقال المناوي أيضًا في فيض القدير :

« ما نقصت صدقة من مال » قال الطيبي : « من » هذه يحتمل أن تكون زائدة ، أي ما نقصت صدقة مالًا ، ويحتمل أن تكون صلة لنقصت ، والمفعول الأول محذوف ؛ أي ما نقصت شيئًا من مالٍ في الدنيا بالبركةِ فيه ، ودفع المفسدات عنه ، والإخلاف عليه بما هو أجدى وأنفع وأكثر وأطيب ﴿ **وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه** ﴾ [سبأ : ٣٩] أو في الآخرة بإجزال الأجر وتضعيفه ، أو فيهما ، وذلك جابر لأصناف ذلك النقص ، بل وقع لبعض الكُمّل أنه تصدق من ماله فلم يجد فيه نقصًا(١) .

قال المناوي :

« ما فتح رجل باب عطية » .

« ما فتح .... إلا زاده الله تعالى بها كثرة » في ماله بأن يبارك الله فيه ، « وما فتح رجل باب مسألة » أي طلب من الناس يريد بها كثرة في معاشه ، « إلا زاده الله تعالى بها قلة » بأن يمحق البركة منه ويحوجه حقيقة ، يعني من وسّع صدره عند سؤال الخلق عند حاجته ، وأنزل فقره وحاجته بهم ، ولم ينزلها بالله زاده الله فقرًا في قلبه إلى غيره(٢) .

من سأل الناس تكثرًا :

---

(١) فيض القدير (٥ / ٥٠٣) . (٢) فيض القدير (٥ / ٤٥٨) .

عن عبد الله بن عمر – رضي الله عنه – قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « ما يزال الرجل يسأل الناس حتى يأتي يوم القيامة ليس في وجهه مُزعة لحم »[١] .

وروى مسلم عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : « من سأل الناس تكثرًا فإنما يسأل جمرًا » .

قال : « فإنما يسأل جمرًا » ، قال النووي : قال القاضي : معناه أنه يعاقب بالنار ، ويحتمل أن يكون على ظاهره ، وأن الذي يأخذه يصير جمرًا يكوى به[٢] . والجزاء من جنس العمل .

«مُزعة لحم»؛ أي قطعة . وحكي كسرها، والذي أحفظه عن المحدثين الضم.

قال ابن التين : ضبطه بعضهم بفتح الميم والزاي .

قال الخطابي : يحتمل أن يكون المراد أنه يأتي ساقطًا لا قدر له ولا جاه ، أو يعذب في وجهه حتى يسقط لحمه ؛ لمشاكلة العقوبة في مواضع الجناية من الأعضاء ، لكونه أذل وجهه بالسؤال ، أو أنه يبعث ووجهه عظم كله فيكون ذلك شعاره الذي يعرف به . انتهى .

والأول صرف للحديث عن ظاهره ، وقد يؤيده ما أخرجه الطبراني ، والبزار من حديث مسعود بن عمرو مرفوعًا : « لا يزال العبد يسأل ، وهو غني ، حتى يخلق وجهه فلا يكون له عند الله وجه » .

وقال ابن أبي جمرة : معناه أنه ليس في وجهه من الحسن شيء ؛ لأن حسن الوجه هو بما فيه من اللحم .

ومال المهلب إلى حمله على ظاهره ، وإلى أن السرَّ فيه أن الشمس تدنو يومَ القيامة ، فإذا جاء لا لحم بوجهه كانت أذية الشمس له أكثر من غيره ، قال : والمراد به من سأل تكثرًا وهو غني لا تحل له الصدقة ، وأما من سأل وهو مضطر فذلك مباح له فلا يعاقب عليه[٣]. اهـ .

---

(١) رواه البخاري . (٢) شرح النووي لمسلم (٣ / ٧٩) .

(٣) فتح الباري (٣ / ٣٩٦ – ٣٩٧) .

فقول الخطابي : أو يعذب في وجهه حتى يسقط لحمه ؛ لمشاكلة العقوبة في مواضع الجناية من الأعضاء ، لكونه أذل وجهه بالسؤال .

قول ابن المهلب : فإذا جاء لا لحم بوجهه كانت أذية الشمس له أكثر من غيره .

فلما أذل وجهه بالسؤال فكذا يذلُّ الله وجهه بالتعذيب يوم القيامة . والجزاء من جنس العمل .

○ قصة أصحاب الجنة ○

قال تعالى : ﴿ **إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين . ولا يستثنون . فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون . فأصبحت كالصريم فتنادوا مصبحين . أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين . فانطلقوا وهم يتخافتون . أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين . وغدوا على حرد قادرين . فلما رأوها قالوا إنا لضالُّون . بل نحن محرومون** ﴾ [القلم : ١٧ - ٢٧] .

ذكر بعض السلف أن هؤلاء كانوا من أهل اليمن ، قال سعيد بن جبير : كانوا من قرية يقال لها : ضروان على ستة أميال من صنعاء . وقيل : كانوا من أهل الحبشة ، وكان أبوهم قد خلف لهم هذه الجنة ، وكانوا من أهل الكتاب ، وقد كان أبوهم يسير فيها سيرة حسنة ، فكان ما يستغل منها يرد فيها ما تحتاج إليه ويدخر لعياله قوت سنتهم ويتصدق بالفاضل ، فلما مات وورثه بنوه قالوا : لقد كان أبونا أحمق ، إذْ كان يصرف من هذه شيئًا للفقراء ، ولو أنا منعناهم لتوفر ذلك علينا فلما عزموا على ذلك عوقبوا بنقيض قصدهم ، فأذهب الله ما بأيديهم بالكلية ، رأس المال والربح والصدقة ، فلم يبق لهم شيء .

﴿ **إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين** ﴾ .

قال ابن كثير : حلفوا فيما بينهم ليجذن ثمرها ليلًا ، لئلا يعلم بهم فقير ولا سائل ، فيتوفر ثمرها عليهم ، ولا يتصدقوا منه بشيء .

﴿ ولا يستثنون ﴾ أي فيما حلفوا به ، ولهذا حنثهم الله في أيمانهم .

﴿ فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون ﴾ أي أصابتها آفة سماوية .

﴿ فأصبحت كالصريم ﴾ قال ابن عباس : أي كالليل الأسود ، وقال الثوري : مثل الزرع إذا حصد ؛ أي هشيمًا يبسًا .

﴿ فتنادوا مصبحين ﴾ أي لما كان وقت الصبح نادىٰ بعضهم بعضًا ، ليذهبوا إلى الجذاذ أي حرموا خير جنتهم بذنبهم .

﴿ فانطلقوا وهم يتخافتون أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين ﴾ أي يقول بعضهم لبعض : لا تمكنوا اليوم فقيرًا يدخلها عليكم .

﴿ وغدوا على حردٍ قادرين ﴾ أي قوة وشدة . أو جد ، كما قال مجاهد ، وقال عكرمة : على غيظ ، وقال الشعبي : ﴿ على حرد ﴾ : على المساكين .

﴿ قادرين ﴾ أي عليها فيما يزعمون ويرومون .

﴿ فلما رأوها قالوا إنا لضالون ﴾ أي فلما وصلوا إليها ، وأشرفوا عليها ، وهي الحالة التي قال الله عز وجل ، قد استحالت عن النضارة والزهر وكثرة الثمار ، إلى أن صارت سوداء مدلهمة ، لا ينتفع بشيء منها ، فاعتقدوا أنهم قد أخطأوا الطريق ولهذا قالوا : ﴿ إنا لضالون ﴾ أي قد سلكنا إليها غير الطريق ، فتهنا عنها ، قاله ابن عباس وغيره ، ثم رجعوا عما كانوا فيه ، وتيقنوا أنها هي ، فقالوا : ﴿ بل نحن محرومون ﴾[1] .

قال صاحب الظلال :

يدبر لهم غير ما يدبرون ، جزاءً على ما بيّتوا من بطر بالنعمة ومنع للخير ، وبخل بنصيب المساكين .

جنة ضائعة على مذبح البطر والمنع والكيد والتدبير ﴿ كذلك العذاب ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون ﴾ [القلم : ٣٣] .

قال الشيخ محمد الطاهر بن عاشور :

---

(١) تفسير ابن كثير (٤ / ٤٠٦ - ٤٠٧) .

﴿ بل نحن محرومون ﴾ .

بيّتوا حرمان المساكين من فضول ثمرتهم ، فكانوا هم المحرومين من جميع الثمار ، فالحرمان الأعظم قد اختص بهم ، إذْ ليس حرمان المساكين بشيء في جانب حرمانهم(١).

○ قصة صاحب الجنتين ○

وذكر ابن كثير قصة الرجلين المؤمن والكافر :

قال تعالى : **﴿ واضرب لهم مثلًا رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعنابٍ وحففناهما بنخلٍ وجعلنا بينهما زرعًا كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئًا وفجرنا خلالهما نهرًا . وكان له ثمر فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالًا وأعزُّ نفرًا . ودخل جنّته وهو ظالم لنفسه قال ما أظنّ أن تبيد هذه أبدًا . وما أظنّ السّاعة قائمة ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيرًا منها منقلبًا ﴾** [الكهف : ٣٢ : ٣٦].

قال بعض الناس : هذا مثل مضروب ، ولا يلزم أن يكون واقعًا ، والجمهور أنه أمر قد وقع وقوله : **﴿ واضرب لهم مثلًا ﴾** ، أي لكفار قريش كما قال تعالى : **﴿ واضرب لهم مثلًا أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون ﴾** .

قال تعالى : **﴿ فعسىٰ ربي أن يؤتينِ خيرًا من جنتك ويرسلَ عليها حسبانًا من السماء ﴾** [الكهف : ٤٠] .

قال ابن عباس وقتادة : حسبانا ؛ أي عذابا من السماء . والظاهر أنه المطر المزعج الباهر ، الذي يقتلع زروعها وأشجارها .

﴿ فتصبح صعيد زلقا ﴾ [الكهف : ٤٠] وهو التراب الأملس الذي لا نبات فيه .

﴿ أو يصبح ماؤها غورًا ﴾ [الكهف : ٤١] وهو ضد المعين السارح .

---

(١) التحرير والتنوير لمحمد الطاهر عاشور (٢٩ / ٨٦) .

﴿فلن تستطيع له طلبا﴾ [الكهف : ٤١] فلا تقدر على استرجاعه .

﴿وأحيط بثمره﴾ [الكهف : ٤٢] أي جاءه أمر أحاط بجميع حواصله ، وخرّب جنته ودمّرها .

﴿فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهي خاوية على عروشها﴾ أي خربت بالكلية فلا عودة لها ، وذلك ضد ما كان عليه أمل حيث قال : ﴿وما أظن أن تبيد هذه أبدًا﴾ .

إن من قدم شيئًا على طاعة الله ، والإنفاق في سبيله عذب به ، وربما سُلب منه معاملة له بنقيض قصده ، والجزاء من جنس العمل .

○ صنائع المعروف تقي مصارع السوء ○

قال ﷺ : « صنائع المعروف تقي مصارع السوء والآفات والهلكات ، وأهل المعروف في الدنيا هم أهل المعروف في الآخرة »[1] .

وعن أبي أمامة – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : « صنائع المعروف تقي مصارع السوء ، وصدقة السر تطفىء غضب الرب ، وصلة الرحم تزيد في العمر »[2] .

وقال ﷺ : « صنائع المعروف تقي مصارعَ السُّوء ، والصدقة خفيًّا تطفىء غضب الرب ، وصلة الرحم زيادة في العمر ، وكلُّ معروف صدقة ، وأهل المعروف في الدنيا هم أهل المعروف في الآخرة ، وأهل المنكر في الدنيا

---

(١) صحيح : رواه الحاكم عن أنس ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣٦٨٩ ، والصحيحة رقم ١٩٠٨ .

(٢) حسن : رواه الطبراني في الكبير، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣٦٩١.

هم أهل المنكر في الآخرة[١].

قال المناوي :

هذا تنويه عظيم بفضل المعروف وأهله ، قال عليّ كرّم الله وجهه : لا يزهدك في المعروف كفر من كفر ، فقد يشكره الشّاكر أضعاف جحود الكافر .

قال الماوردي : فينبغي لمن قدر على ابتداء المعروف أن يجعله حذرًا من فوته ، ويبادر به خيفة عجزه ، ويعتقد أنه من فرض زمانه ، وغنائم إمكانه ، ولا يمهله ثقة بالقدرة عليه ، فكم من واثق بقدرة فاتت فأعقبت ندمًا ، ومعول على مكْنَة زالت فأورثت خجلًا ، ولو فطن لنوائب دهره ، وتحفظ من عواقب فكره ، لكانت مغارمه مدحورة ، ومغانمه محبورة .

وقيل : من أضاع الفرصة عن وقتها ، فليكن على ثقة من فوتها[٢] .

قصة واقعية توضح كون أن الجزاء من جنس العمل ، وصنائع المعروف تقي مصارع السوء :

هذه القصة حدثت منذ مائة سنة تقريبًا وهي واقعية ، وهذه القصة سُمعت في الإذاعة في ركن البادية من الإذاعة السعودية .

يذكر رجلٌ يسمى ابن جدعان يقول : خرجت في فصل الربيع ، وإذا بي أرى إبلي سمانا ، يكاد الربيع أن يفجر الحليب من ثديها ، وكلما اقترب الحوار ابن الناقة من أمه دَرّت عليه ، وانهال الحليب منها لكثرة الخير والبركة ، فنظرت إلى ناقة من نياقي ابنها خلفها ، وتذكرت جارًا لي له بُنَيَّات سبع فقير الحال ، فقلت : والله لأتصدقن بهذه الناقة وولدها لجاري والله يقول : ﴿ **لن تنالوا البر**

(١) صحيح : رواه الطبراني في الأوسط عن أم سلمة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣٦٩٠ .

(٢) فيض القدير للمناوي (٤ / ٢٠٦) .

حتى تنفقوا مما تحبون ﴾ وأحب حلالى هذه الناقة ، يقول : فأخذتها وابنها ، وطرقت الباب على الجار ، وقلت : خذها هدية مني لك ، فرأيت الفرح في وجهه لا يدري ماذا يقول ، فكان يشرب من لبنها ويحتطب على ظهرها ، وينتظر وليدها يكبر ليبيعه ، وجاءه منها خير عظيم ، فلما انتهى الربيع وجاء الصيف بجفافه وقحطه ، تشققت الأرض وبدأ البدو يرتحلون يبحثون عن الماء والكلأ ، يقول : شددنا الرحال ، وظعنا من مكاننا نبحث عن الماء في الدحول - والدحول هي حفر في الأرض توصل إلى محابس مائية - أقبية مائية تحت الأرض ، لها فتحات فوق الأرض يعرفها البدو .

يقول : فدخلت في هذا الدحل حتى أحضر الماء لنشرب - وأولاده الثلاثة خارج الدحل ينتظرون - فَتَاه تحت الأرض ، ولم يعرف الخروج . وانتظر أبناؤه يومًا ويومين وثلاثة حتى يئسوا ، قالوا : لعل ثعبانا لدغه ومات ، لعله تاه تحت الأرض وهلك ، وكانوا - عياذًا بالله - ينتظرون هلاكه طمعًا في تقسيم المال والحلال ، فذهبوا إلى البيت وقسموا وتذكروا أن أباهم قد أعطى ناقة لجارهم الفقير ، فذهبوا إليه وقالوا له : أعدِ الناقة خيرا لك ، وخذ هذا الجمل مكانها ، وإلا سنسحبها عنوة الآن ، ولن نعطيك شيئًا .

قال : أشتكيكم إلى أبيكم .

قالوا : اشتكِ إليه ، فإنه قد مات .

قال : مات . كيف مات ؟ وأين مات ؟ ولِم لَمْ أعلم بذلك .

قالوا : دخل دحلًا في الصحراء ولم يخرج .

قال : ناشدتكم الله اذهبوا بي إلى مكان هذا الدحل ، ثم خذوا الناقة ، وافعلوا ما شئتم ولا أريد جملكم .

فذهبوا به . فلما رأى المكان الذي دخل فيه صاحبه الوفيّ ذهب وأحضر حبلًا ، وأشعل شمعة ، ثم ربطه خارج الدحل ، ونزل يزحف على قفاه حتى وصل إلى أماكن فيها يحبو ، وأماكن فيها يزحف ، وأماكن يتدحرج ، ويشم رائحة الرطوبة تقترب ، وإذا به يسمع أنين الرجل عند الماء فأخذ يرهف تجاه الأنين

في الظلام ، ويتلمس الأرض ، فوقعت يده على الطين ، ثم وقعت يده على الرجل ، فوضع يده على أنفاسه فإذا هو حيّ يتنفس بعد أسبوع ، فقام وجرّه ، وربط عينيه حتى لا تنبهر بضوء الشمس ، ثم أخرجه معه خارج الدحل ، ومرس له التمر وسقاه ، وحمله على ظهره ، وجاء به إلى داره ، ودبّت الحياة في الرجل من جديد ، وأولاده لا يعلمون ، فقال : أخبرني بالله عليك ، أسبوعًا كاملًا وأنت تحت الأرض ولم تمت ، قال : سأحدثك حديثًا عجبًا ، لمّا نزلت ضعت ، وتشعبت بي الطرق ، فقلت : آوي إلى الماء الذي وصلت إليه ، وأخذت أشرب منه ، ولكنّ الجوع لا يرحم ، فالماء لا يكفي .

يقول : وبعد ثلاثة أيام ، وقد أخذ الجوع مني كل مأخذ ، وبينما أنا مستلقٍ على قفاي ، قد أسلمت وفوّضت أمري إلى الله ، وإذا بي أحس بدفء اللبن يتدفق على فمي .

يقول : فاعتدلت في جلستي ، وإذا بإناء في الظلام لا أراه يقترب من فمي فأشرب حتى أرتوي ، ثم يذهب ، فأخذ يأتيني ثلاث مرات في اليوم . ولكنه منذ يومين انقطع ما أدري ما سبب انقطاعه ؟

يقول : فقلت له : لو تعلم سبب انقطاعه لتعجبت ، ظن أولادك أنك متّ ، وجاءوا إلي وسحبوا الناقة التي كان الله يسقيك منها ، والمسلم في ظل صدقته ، ﴿ **ومن يتقِ الله يجعلْ له مخرجًا. ويرزقه من حيث لا يحتسب** ﴾[1] [الطلاق : ٢ - ٣] .

والجزاء من جنس العمل .

○ فضل إنظار المعسر أو التجاوز عنه ○

عن ابن مسعود - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « حُوسبَ رجلٌ ممن كانَ قَبْلَكُم ، فلم يوجد له من الخير شيء ، إلّا أنه كان رجلًا موسرًا ، فكان يخالط الناس ، وكانَ يأمر غلمانه أن يتجاوزوا عن المعسِرِ . فقال الله تعالى:

(١) قصص واقعية عن بعض الموتى لمجموعة من العلماء .

نحن أحق بذلك منه تجاوزوا عنه »[١] .

قال المناوي :

« حُوسب رجل » يحاسب رجل يوم القيامة ، فأورده بصيغة الماضي ، لتحقق وقوعه . « ممن كان قبلكم » من الأمم السابقة ، « أن يتجاوزوا عن المعسر » ؛ أي الفقير المقلّ المديون له بأن يحطوا عنه ، أو ينظروه إلى ميسرة .

« فقال الله عز وجل : نحن أحق بذلك منه » ؛ لأنه المتفضل على الحقيقة ، إذ لا حقّ عليه لأحد ، « تجاوزوا عنه » أي عن ذنوبه[٢] .

فهذا الرجل الذي كان يسامح الناس في التقاضي ، ويتجاوز عنهم سامحه الله وتجاوز عن ذنوبه ، والجزاء عند الله من جنس العمل .

وعن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : « كان رجل يداين الناس ، فكان يقول لفتاه : إذا أتيت معسرًا فتجاوز عنه ؛ لعلّ الله أن يتجاوز عنا ، فلقي الله فتجاوز عنه »[٣] .

عن بريدة – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : « من أنظر معسرًا ، فله بكل يوم مثله صدقة ، قبل أنْ يحلّ الدين ، فإذا حلَّ الدين فأنظره ، فله بكل يوم مثلاه صدقة »[٤] .

قال المناوي :

قال السبكي : وزع أجره على الأيام ، يكثر بكثرتها ، ويقل بقلتها ، وسره ما يقاسيه المنظر من ألم الصبر ، مع تشوق القلب لما له فلذلك كان ينال كل

---

(١) صحيح : رواه الترمذي ، والبخاري في الأدب ، والحاكم في المستدرك ، والبيهقي في شعب الإيمان وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم ٣١٥٤ .

(٢) فيض القدير (٣ / ٣٩٨) .

(٣) رواه الشيخان ، وأحمد ، والنسائي .

(٤) رواه أحمد في مسنده، وابن ماجة، والحاكم في المستدرك، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٩٨٤ . والإرواء رقم ١٤٢٨ ، والصحيحة رقم ٨٦ .

يوم عوضًا جديدًا[١] .

عن أبي اليسر – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : « من أنظر معسرًا ، أو وضع عنه أظلَّه الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله »[٢] .

قال المناوي :

« من أنظر معسرًا » ؛ أي أمهل مديونًا فقيرًا من المنظرة . قال الحرالي : وهي التأخير المرتقب ، « أو وضع عنه » ؛ أي حط عنه من دينه ، « أظله الله في ظله » أظله في ظل العرش حقيقة ، « يوم لا ظل إلا ظله » ، أي ظل الله .

وإنما استحق المنظر ذلك ؛ لأنه آثر المديون على نفسه ، وأراحه ، فأراحه الله ، والجزاء من جنس العمل[٣] اهـ .

○ العتـق ○

قال ابن كثير في تفسيره (٤/ ١٠٨) :

قد ورد في ثواب الإعتاق وفك الرقبة أحاديث كثيرة، وأن الله يعتق بكل عضو منها عضوًا من معتقها حتى الفرج بالفرج ، وما ذاك إلا لأن الجزاء من جنس العمل ﴿ وما تجزون إلا ما كنتم تعملون ﴾ [الصافات : ٣٩] .

عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : « من أعتق رقبة مسلمة ، أعتق الله له بكل عضو منها عضوًا من النار ، حتى فرجه بفرجه »[٤].

وعن أبي نجيح السلمي قال : قال رسول الله ﷺ : « أيما رجل مسلم أعتق رجلًا مسلمًا ، فإن الله تعالى جاعل وقاء كل عظم من عظامه عظمًا من عظام محرّره من النار ، وأيُّما امرأة أعتقت امرأة مسلمة ، فإن الله تعالى جاعل وقاء كل عظم من عظامها عظمًا من عظام محررتها من النار يوم القيامة»[٥].

---

(١) فيض القدير (٦ / ٩٠) . (٢) رواه مسلم وأحمد .

(٣) فيض القدير (٦ / ٨٩) . (٤) رواه الشيخان ، والترمذي .

(٥) صحيح : رواه أبو داود وابن حبان في صحيحه ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٢٧٢٣ ، وكذا أخرجه أحمد ، والطحاوي .

قال المناوي : جزاءً وفاقًا . والجزاء من جنس العمل .

عن أبي هريرة – رضي الله عنه – عن النبي ﷺ قال : « من أعتق رقبة مؤمنة أعتق الله بكل إرْبٍ منها إربًا منه من النار »[١] .

الإرب : هو العُضو بضم العين وكسرها .

قال رسول الله ﷺ : « أيما امرىء مسلم أعتق امرءًا مسلمًا فهو فكاكه من النار يُجزى بكل عظمٍ منه عظمًا منه ، وأيُّما امرأةٍ مسلمة أعتقت امرأة مسلمة ، فهي فكاكها من النار ، يُجزى بكل عظم منها عظمًا منها ، وأيما امرىء مسلم أعتق امرأتين مسلمتين فهما فكاكه من النار ، يُجزى بكل عظمين منهما عظمًا منه »[٢].

وقال رسول الله ﷺ : «من أعتَق رقبة مؤمنة كانت فداءه من النار »[٣].

وقال ﷺ: «عتق النسمة أن تنفرد بعتقها، وفك الرقبة أن تعين في عتقها»[٤].

وأولى الناس بهذا الصديق– رضي الله عنه– الذي أعتق من الرقاب ما أعتق .

عن عائشة – رضي الله عنها – أن أبا بكر دخل على رسول الله ﷺ فقال : « أنت عتيق الله من النار » قاله لأبي بكر[٥] .

قال المناوي :

---

(١) رواه مسلم .

(٢) صحيح : أخرجه الطبراني في الكبير عن عبد الرحمن بن عوف ، وأبو داود ، وابن ماجه ، والطبراني في الكبير عن مرة بن كعب ، والترمذي عن أبي أمامة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٢٦٩٧، والنسائي، وقال ابن حجر في الفتح ١٧٥/٥: إسناده صحيح .

(٣) صحيح : رواه أحمد ، وأبو داود ، والنسائي عن عمرو بن عبسة وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٩٢٦ .

(٤) رواه الطيالسي عن البراء ورواه أحمد وابن حبان في صحيحه والطحاوي وصححه الألباني في صحيح الجامع ٣٨٧١ .

(٥) صحيح : أخرجه الترمذي ، والطبراني في المعجم الكبير ، والحاكم وقال : صحيح على شرط مسلم ، والحديث جيد الإسناد وصححه الألباني في الصحيحة رقم ١٥٧٤ .

« أعتق الله » أي أنجى الله ، وذكر بلفظ الإعتاق للمشاكلة .

أعتق العباد فأعتقه الله من النَّار ، والجزاء من جنس العمل .

لمّا حدث سعيد بن مرجانة صاحب علي بن الحسين – رضي الله عنهما – الحديث عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ : « أيما رجلٍ أعتق امرءًا مسلمًا استنقذ الله بكل عُضو منه عضوًا منه من النار » .

قال سعيد : فانطلقت به إلى علي بن الحسين ، فعمد علي بن الحسين – رضي الله عنهما – إلى عبد له قد أعطاه به عبد الله بن جعفر عشرة آلاف درهم – أو ألف دينار – فأعتقه . رواه البخاري .

عن عبادة – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من رجل يجرح في جسده جراحة ، فيتصدق بها ، إلا كفّر الله مثل ما تصدق »[(١)] .

قال المناوي : إذا جنى إنسان على آخر جناية ، فعفا عنه لوجه الله تعالى نال هذا الثواب .

عن عبادة – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ تصدّق بشيء من جسده ؛ أُعطي بقدر ما تصدق »[(٢)] .

قال المناوي :

يعني من جنى عليه إنسان ، كأن قطع منه عضوًا أو أزال منفعته ، فعفا عنه لوجه الله ، أثابه الله تعالى عليه بقدر الجناية .

ويحتمل أن المراد بالتصدق بذلك أن يباشر بعض الطاعة ببعض بدنه ، كأن يزيل الأذى عن الطريق بيده ، فيثاب بقدر ذلك[(٣)] .

---

(١) صحيح : رواه أحمد والضياء عن عبادة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٥٨٨ ، والسلسلة الصحيحة رقم ٢٢٧٣ . وقال المنذري والهيثمي : رجاله رجال الصحيح .

(٢) صحيح : رواه الطبراني في الكبير عن عبادة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦٠٢٧ .

(٣) فيض القدير (٦ / ١٠٦) .

○ إثم مانع الزكاة ○

قال تعالى : ﴿ ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرًا لهم بل هو شرٌّ لهم سيُطوقون ما بخلوا به يوم القيامة ولله ميراث السموات والأرض والله بما تعملون خبير ﴾ [آل عمران : ١٨٠].

من آثر شيئًا على الله لم يبارك له فيه ، فلا يدوم له في الدنيا بذلك استمتاع ، ولا للعقوبة عليه في الآخرة عنه دفاع .

عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : « تأتي الإبل على ربها على خير ما كانت إذا هي لم يُعطِ فيها حقها ، تطؤه بأخفافها وتأتي الغنم على ربها على خير ما كانت إذا لم يعطِ فيها حقها ، تطؤه بأظلافها ، وتنطحه بقرونها ، ومِنْ حقها أن تحلب على الماء ، ألا لا يأتين أحدكم يوم القيامة ببعير يحمله على رقبته ، له رغاء ، فيقول : يا محمد ! فأقول : لا أملك لك شيئًا ، قد بلغت ، ألا لا يأتين أحدكم يوم القيامة بشاة يحملها على رقبته لها يُعَارٌ ، فيقول : يا محمد ! فأقول : لا أملك لك شيئًا قد بلّغت ، ويكون كنز أحدكم يوم القيامة شجاعًا أقرع ، يفر منه صاحبه ويطلبه : أنا كنزك ، فلا يزال حتى يُلقمه إصبعه »[(١)] .

وفي رواية البخاري : « تأتي الإبل على صاحبها » .

وقال ﷺ : « ما من صاحب إبلٍ ، ولا بقرٍ ولا غنمٍ ، لا يؤدي زكاتها ، إلا جاءت يوم القيامة أعظم ما كانت وأسمنه ، تنطحه بقرونها ، وتطؤه بأخفافها ، كلما نفدت أخراها ، عادت عليه أولاها ، حتى يقضى بين الناس »[(٢)] .

---

(١) رواه النسائي ، وابن ماجة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٢٨٩٩ ، ورواه البخاري .

(٢) صحيح : رواه النسائي ، وابن ماجة ، وابن حبان في صحيحه عن أبي ذر ، ورواه الترمذي ، وأحمد ، ومسلم .

قال ابن حجر :

« على خير ما كانت » أي من العظم والسمن ، ومن الكثرة ؛ لأنها تكون عنده على حالات مختلفة ، فتأتي على أكملها ليكون ذلك أنكى له لشدة ثقلها .

« تطؤه بأخفافها » وفي رواية : « فتخبط وجهه بأخفافها » .

« كلما مرت عليه أولاها ردت عليه أخراها » يحتمل أن المعنى أن أول الماشية إذا وصلت إلى آخرها تمشي عليه تلاحقت بها أخراها ، ثم إذا أرادت الأولى الرجوع بدأت الأخرى بالرجوع ، فجاءت الأخرى أول حتى تنتهي إلى آخر الأولى - وكذا وجهه الطيبي فقال : إن المعنى أن أولاها إذا مرت على التتابع إلى أن تنتهي إلى الأخرى ، ثم ردت الأخرى من هذه الغاية ، وتبعها ما يليها إلى أن تنتهي أيضًا إلى الأولى ، والله أعلم .

« تطؤه بأظلافها وتنطِحه بقرونها » وفي رواية « ليس فيها عقصاء ولا جلحاء ولا عضباء ، تنطحه بقرونها » - العقصاء : ملتوية القرنين ، الجلحاء : التي لا قرن لها ، العضباء : التي انكسر قرنها للداخل ، يُعار : صوت المعز ، ثغاء : صياح الغنم ، رغاء : صوت الإبل .

وفي الحديث : « إنَّ الله يحيي البهائم ؛ ليعاقب بها مانع الزكاة » . وفي ذلك معاملة له بنقيض قصده ؛ لأنه قصد منع حق الله منها ، وهو الارتفاق والانتفاع بما يمنعه منها ، فكان ما قصد الانتفاع به أضرَّ الأشياءِ عليه .

والحكمة في كونها تعاد كلها مع أن حق الله فيها إنما هو في بعضها ؛ لأن الحق في جميع المال غير متميز ؛ ولأن المال لما لم تخرج زكاته غير مطهر ، وفيه أن في المال حقًّا سوى الزكاة ، وهو القدر الزائد على الواجب ، ولا عقاب بتركه وإنما ذكر استطرادًا ، لما ذكر حقها بين الكمال فيه ، وإنْ كان له أصل يزول الذم بفعله وهو الزكاة[١] .

(١) فتح الباري (٣ / ٣١٥ - ٣١٦) .

عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « من آتاه الله مالًا فلم يُؤد زكاته مُثل له يوم القيامة شجاعًا أقرعَ ، له زبيبتان ، يطوقه يوم القيامة ، ثم يأخذ بِلهْزِمَتيه - يعني شدْقيه - ثم يقول : أنا مالُك ، أنا كنزك ، ثم تلا : ﴿ **ولا يحسبن الذين يبخلون ..** ﴾[1] الآية .. » .

وعن ابن مسعود- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من أحد لا يؤدي زكاة ماله ؛ إلا مُثل له يوم القيامة شجاعًا أقرع ، حتى يطوّق عنقه »[2] .

قال ابن حجر :

« مُثلَ » أي صُوِّر ، أو ضمن مثل معنى التصيير ؛ أي صير ماله على صورة شجاع .

ووقع في رواية زيد بن أسلم : « ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدي منها حقها ، إلا إذا كان يوم القيامة صفحت له صفائح من نار ، فأُحمي عليها في نار جهنم ، فيكوى بها جنبه وجبينه وظهره »[3] .

ولا تنافي بين الروايتين ؛ لاحتمال اجتماع الأمرين معًا ، فرواية ابن دينار توافق الآية التي ذكرها وهي ﴿ **سيطوقون** ﴾ ورواية زيد بن أسلم توافق قوله تعالى : ﴿ **يوم يحمى عليها في نار جهنم ...** ﴾ الآية .

قال البيضاوي : خص الجنب والجبين والظهر ؛ لأنه جمع المال ، ولم يصرفه في حقه ؛ لتحصيل الجاه والتنعم بالمطاعم والملابس ، أو لأنه أعرض عن الفقير وولّاه ظهره ، أو لأنها أشرف الأعضاء الظاهرة ؛ لاشتمالها على الأعضاء الرئيسية .

---

(١) رواه البخاري .

(٢) صحيح : رواه ابن ماجة عن ابن مسعود ، ورواه ابن خزيمة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٥٥٢ .

(٣) فتح الباري (٣ / ٣١٧ - ٣١٨) .

وقيل : المراد بها الجهات الأربع التي هي مقدم البدن ومؤخره ، وجنباه ، والمراد بالشجاع : الحية الذكر ، وقيل : الذي يقوم على ذنبه ويواثب الفارس ، والأقرع الذي تقرع رأسه ، أي تمعط لكثرة سمِهِ . وفي تهذيب الأزهري سمي أقرع ؛ لأنه يقري السمَّ ، ويجمعه في رأسه ، حتى تتمعط فروة رأسه .

قال ذو الرمة :

قرىٰ السمَّ حتى انهارَ فروة رأسه عن العظم صلٌّ قاتلُ اللسعِ ماردُهْ

« له زبيبتان » وهما الزبدتان اللتان في الشدقين ، يقال : تكلم حتى زَبد شدقاه ؛ أي خرج الزبد منهما ، وقيل : هما النكتتان السوداوان فوق عينيه . وقيل : نقطتان يكتنفان فاه ، وقيل : هما في حلقه بمنزلة زنمتي العنز ، وقيل لحمتان على رأسه مثل القرنين ، وقيل : نابان يخرجان من فيه .

« يطوقه » أي يصير له ذلك الثعبان طوقًا .

« ثم يأخذ بلهزمتيه » أي الشجاع ، والمأخوذ يد صاحب المال ، كما وقع مبينًا في رواية همام عن أبي هريرة : « لا يزال يطلبه حتى يبسط يده فيلقمها فاه » .

« لهزمتيه » وقد فسر في الحديث بالشدقين ، وفي الصحاح : هما العظمان الناتئان في اللحيين تحت الأذنين . وفي الجامع : هما لحم الخدين الذي يتحرك إذا أكل الإنسان .

« ثم يقول : أنا مالك ، أنا كنزك » وفائدة هذا القول الحسرة ، والزيادة في التعذيب حيث لا ينفعه الندم ، وفيه نوع من التهكم .

ومن طريق همام عن أبي هريرة : « يفر منه صاحبه ويطلبه » .

وفي حديث ثوبان عند ابن حبان : « يتبعه فيقول : أنا كنزك الذي تركته بعدك ، فلا يزال يتبعه حتى يلقمه يده ، فيمضغها ثم يتبعه سائر جسده » .

ولمسلم في حديث جابر : « يتبع صاحبه حيث ذهب وهو يفر منه ، فإذا رأى أنه لا بد منه أدخل يده في فيه ، فجعل يقضمها كما يقضم الفحل » .

وللطبراني في حديث ابن مسعود : « ينقر رأسه » .

وظاهر الحديث أن الله يصيِّر نفس المال بهذه الصفة .

﴿ ولا يحسبن الذين يبخلون ... ﴾ الآية : المراد بالتطويق في الآية الحقيقة ، خلافًا لمن قال : إن معناه سيطوقون الإثم . وفي تلاوة النبي ﷺ الآية دلالة على أنها نزلت في مانعي الزكاة ، وهو قول أكثر أهل العلم بالتفسير[1] اهـ .

عن جابر بن عبد الله الأنصاري . قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما مِنْ صاحب إبلٍ لا يفعل فيها حقها ، إلا جاءت يوم القيامة أكثر ما كانت قط ، وقعد لها بِقَاع قَرْقَر ، تستن[2] عليه بقوائمها وأخفافها ، ولا صاحب بقرٍ لا يفعل فيها حقها ، إلا جاءت يوم القيامة أكثر ما كانت ، وقعد لها بقاع قرقر ، تنطحه بقرونها ، وتطؤه بقوائمها ، ولا صاحب غنمٍ لا يفعل فيها حقها ، إلا جاءت يوم القيامة أكثر ما كانت ، وقعد لها بقاع قرقر ، تنطحه بقرونها ، وتطؤه بأظلافها ، ليس فيها جَمّاء ، ولا منكِسرٌ قرنها ، ولا صاحب كنزٍ لا يفعل فيه حقه ؛ إلا جاء كنزه يوم القيامة شجاعًا أقرع ، يتبعه فاتحًا - فاغرًا - فاه ، فإذا أتاه فرّ منه ، فيناديه خذ كنزك الذي خبأته ، فأنا عنه غني ، فإذا رأى أن لا بد منه سلك يده في فيه ، فيقضمها قضم الفحل »[3] .

عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من صاحب ذهبٍ ولا فضةٍ ، لا يؤدي منها حقها ، إلا إذا كان يومَ القيامة ، صُفِّحت له صفائح من نَار ، فأُحمي عليها في نار جهنم ، فيكوى به جنبه ، وجبينه ، وظهره ، كلما بردت أعيدت له ، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضَى بين العباد ، فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار ، ولا صاحب إبل ، لا يؤدي منها حقها ، ومن حقها حلبها يوم ورودها ، إلا إذا كان يوم القيامة بُطح لها

(١) فتح الباري (٣ / ٣١٧ - ٣١٨) .

(٢) أي ترفع يديها ، وتطرحهما معا على صاحبها .

(٣) رواه أحمد ، ومسلم ، والنسائي عن جابر .

بقاع قرقر[١] أوفر ما كانت لا يفقد منها فصيلًا واحدًا ، تطؤه بأخفافها ، وتعضه بأفواهها ، كلما مرّ عليها أولاها رد عليه أخراها ، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ، حتى يقضى بين العباد ، فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار ، ولا صاحب بقرٍ ولا غنمٍ لا يؤدي منها حقها ، إلا إذا كان يوم القيامة بطح لها بقاع قرقر ، لا يفقد منها شيئًا ، ليس فيها عقصاء ولا جلحاء ولا عضباء ، تنطحه بقرونها ، وتطؤه بأظلافها ، كلما مر عليه أولاها رد عليه أخراها ، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ، حتى يقضى بين العباد فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار »[٢] .

الذين يكنزون الذهب والفضة :

قال تعالى : ﴿ **والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم . يوم يحمىٰ عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون** ﴾ [التوبة : ٣٤ - ٣٥] .

قال ابن كثير :

أي يقال لهم هذا الكلام تبكيتا وتقريعا وتهكما ؛ أي هذا بذاك ، وهو الذي كنتم تكنزون لأنفسكم ، ولهذا يقال : من أحب شيئًا ، وقدّمه على طاعة الله عذب به . وهؤلاء لما كان جمع هذه الأموال آثر عندهم من رضا الله عنهم ،

---

(١) بطح لها بقاع قرقر ؛ القاع : المستوى الواسع من الأرض ، يعلوه ماء السماء فيمسكه .
قال الهروي : وجمعه قِيعَة وقِيعَان . والقرقر : المستوى أيضًا من الأرض الواسع .
بطح : قال جماعة : ألقي على وجهه . وليس من شرط البطح كونه على الوجه ، وإنما هو في اللغة بمعنى البسط والمد ، فقد يكون على وجهه ، وقد يكون على ظهره ، قاله النووي .

(٢) رواه أحمد ومسلم والنسائي وأبو داود عن أبي هريرة .

عذبوا بها . كما أن هذه الأموال كانت أعز الأشياء على أربابها ، كانت أضرَّ الأشياء عليهم في الدار الآخرة ، فيحمى عليها في نار جهنم ، وناهيك بحرها ، فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم[1] .

قال الشيخ محمد رشيد رضا في تفسير المنار :

يحمى على تلك الأموال المكنوزة في نار جهنم ، بأن توضع وتضرم عليها النار الحامية ، حتى تصير مثلها ، وهو أبلغ من يوم تحمى فيكون من الإحماء عليها كالميسم . وظاهر العبارة أنه يحمى عليها بأعيانها ، والله قادر على إعادتها .

﴿ فتكوى بها جباههم ﴾ التي كانوا يستقبلون بها الناس منبسطة أساريرها من الاغتباط بعظمة الثروة ، ويستقبلون بها الفقراء منقبضة متنغصة من العبوس والتقطيب في وجوههم ؛ لينفروا ويحجموا عن السؤال .

﴿وجنوبهم وظهورهم﴾ التي كانوا يتقلبون بها على سرر النعمة اضطجاعًا واستلقاءً، ويعرضون بها عن لقاء المساكين، وطلاب الحاجات، ازورارًا وإدبارًا، فلا يكون لهم في جهنم ارتفاق ولا استراحة فيما سوى الوقوف إلا بالانكباب على وجوههم.

﴿ فذوقوا ماكنتم تكنزون ﴾ إن ما كنتم تظنون من منفعة كنزه لأنفسكم خاصة ، لا يشارككم فيها أحد ، قد كان لكم خلفًا ، وعليكم ضدًّا ، فإنه صار في الدنيا لغيركم ، وكان عذابه في الآخرة هو الخاص بكم ، كدأب جميع أهل الباطل فيما زين لهم من الرذائل .

يرى البخلاء أنَّ البخل حزم وتلك خديعة الطبع اللئيم .
واجتهاد الرأي الأفين ، فهم من خوف الفقر في فقر[2] .

وقال الفخر الرازي في مفاتيح الغيب :

لم خُصت هذه الأعضاء ؟

---

(١) تفسير ابن كثير (٤ / ٨٢ - ٨٣) .
(٢) تفسير المنار (١٠ / ٤٠٩، ٤١٠) .

الجواب : لوجوه :

الوجه الأول : أن المقصود من كسب الأموال حصول فرح في القلب ، يظهر أثره في الوجوه ، وحصول شبع ينتفخ بسببه الجنبان ، ولبس ثياب فاخرة يطرحونها على ظهورهم ، فلما طلبوا تزين هذه الأعضاء الثلاثة ، لا جرم حصل الكي على الجباه والجنوب والظهور .

قال أبو بكر الوراق : خصت هذه المواضع بالذكر ، لأن صاحب المال إذا رأى الفقير بجنبه تباعد وولى ظهره .

إن كمال حال بدن الإنسان في جماله وقوته ؛ أما الجمال فمحله الوجه ، وأعزُّ الأعضاء في الوجه الجبهة ، فإذا وقع الكيّ في الجبهة ، فقد زال الجمال بالكلية ، وأما القوة فمحلها الظهر والجنبان ، فإذا حصل الكي عليها فقد زالت القوة عن البدن .

فالحاصل : أن حصول الكي في هذه الأعضاء الثلاثة يوجب زوال الجمال وزوال القوة ، والإنسان إنما طلب المال لحصول الجمال ولحصول القوة .

﴿ **فذوقوا ما كنتم تكنزون** ﴾ لم تصرفوه لمنافع دينكم ودنياكم ، على ما أمركم الله به ، فذوقوا وبال ذلك به لا بغيره[1] .

﴿ **هذا ما كنزتم لأنفسكم** ﴾ هذا هو بذاته الذي كنزتموه للذة ، فانقلب أداة لهذا اللون الأليم من العذاب .

﴿ **فذوقوا ما كنتم تكنزون** ﴾ ذوقوه بذاته ، فهو هذا الذي تذوقون منه مسه للجنوب والظهور والجباه .

والجزاء لمانع الزكاة في كل حالاته من جنس عمله .

ما منع قوم الزكاة :

عن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال : قال رسول الله ﷺ : « لم يمنع

---

(١) مفاتيح الغيب (٧ / ٦٥٠ ، ٦٥١) .

قوم زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء ، ولولا البهائم لم يمطروا »[١]

قال المناوي :

أي لم ينزل إليهم المطر عقوبة لهم بشؤم منعهم الزكاة عن مستحقيها ، فانتفاعهم بالمطر الواقع إنما هو واقع تبعًا للبهائم ، فالبهائم حينئذ خير منهم ، وهذا وعيد شديد على ترك إخراج الزكاة أُعظِم به من وعيد[٢] .

لمّا منعوا الزكاة تكثرًا ، وزيادة في أموالهم ، عوقبوا بمنع المطر الذي يخرج به الزرع ، الذي يحصلون منه على المال والثروة ، والجزاء من جنس العمل .

عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال : قال رسول الله ﷺ : « خمس بخمسٍ : ما نقض قوم العهدَ إلا سُلّط عليهم عدوهم ، وما حكموا بغير ما أنزل الله إلا فشا فيهم الفقر ، ولا ظهرتْ فيهم الفاحشة إلا فشا فيهم الموتُ ، ولا طففوا المكيال إلا منعوا النبات ، وأُخذوا بالسنين ، ولا منعوا الزكاة إلا حُبس عنهم المطر »[٣] .

من منع فضل مائه :

عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم : رجل حلف على سلعته لقد أعطى بها أكثر مما أُعطي ، وهو كاذب ، ورجل حلف على يمين كاذبة بعد العصر ؛ ليقتطع بها مال رجل مسلم ، ورجل منع فضل مائه ، فيقول الله : اليوم أمنعك فضلي كما منعت فضل ما لم تعمل يداك » رواه الشيخان .

---

(١) رواه الطبراني في الكبير عن ابن عمر ، وابن ماجة ، وابن أبي الدنيا ، والحاكم في المستدرك والروياني ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٠٨٠ ، والصحيحة رقم ١٠٦ .

(٢) فيض القدير (٥ / ٢٩٧) .

(٣) حسن : رواه الطبراني في الكبير عن ابن عباس ، وحسّنه الألباني في صحيح الجامع ٣٢٣٥ .

قال المناوي :

« لا يكلمهم الله » كلامًا يسرّهم بل بنحو : ﴿ اخسئوا فيها ﴾ [المؤمنون : ١٠٨] .

« ورجل منع فضل مائه » الزائد على حاجته عن المحتاج « فيقول الله » عز وجل يوم القيامة : « اليوم أمنعك فضلي » الذي لا ينجي في ذلك اليوم غيره .

« كما منعت فضل ما لم تعمله يداك » وظاهر قوله : «فضل مائه» بالإضافة أن الكلام في بئر حفرها بملكه أو بموات للارتفاق ، أو أطلق وفضل عن حاجته ما يحتاجه غيره ، وأما ما حفر للمارة فيجب بذله فضلًا وأصلًا ، فإن الحافر فيه كواحد من المارة . فظاهر قوله آخرًا : « ما لم تعمل يداك » أن الكلام في المياه المباحة النابعة في موضع لا يختص بأحد ، ولا صنع للآدميين في انبساطها وإجرائها كماء الأودية والعيون[١] اهـ .

البخل أدوى داء :

وهذه قصة واقعية من منطقة الأحساء تصور مدى خسة البخلاء وكيف يكون جزاؤهم من جنس عملهم .

يذكر هذه القصة الواقعية رجل من منطقة الأحساء[٢] يقول : كان لي جارٌ بخيل بلغ من الكبر عتيًّا ، واشتعل رأسه شيبًا ، ليس له أحد ، لا زوج ولا ولد ولا قريب ، يجمع المال ويكنزه ، وذات يوم تأخر على غير عادته ، ولم يخرج إلى دكانه ، وكان صانعًا للنعال والأحذية ، يقول : فلما صليت العشاء جئت إلى بابه الذي كاد يتهاوى ، لو اتكأت عليه الريح لانهدم ، يقول : فدفعت الباب ثم أدخلت رجلي اليمنى ، وقلت : يا فلان . يقول : ففزع وصرخ وجمع أطرافه ، وقال : ويحك ماذا تريد ؟ اذهب ، اخرج . يقول : فقلت له : جئت أعودك

---

(١) فيض القدير (٣ / ٣٣٠) .

(٢) شريط قصص واقعية عن بعض الموتى لمجموعة من الدعاة .

أتفقدك ، ثلاثة أيام لا أراك في دكانك ، يقول : فطردني شر طردة ، يقول : فخرجت ولكني خشيت أن يكون به مس أو أصابه شيء ، فعدت مرة ثانية ، وإذا به قد جمع الذهب أمامه ؛ دنانير الذهب المصكوكة أمامه بريقها يتراقص على ضوء المصباح ، وبجواره زيت ، وهو يخاطب الذهب : يا حبيبي ، يا من أفنيت فيك عمري ، أموت وأتركك لغيري ، لا والله ، أنا أعلم أن موتي قريب ، وأن مرضي خطير ، ولكني سأدفنك معي ، ثم يأخذ دينار الذهب ، ويغمسه في الزيت ويهوي به إلى فمه ، ويبلعه يقول : فإذا بلعه أصابته كحة شديدة يكاد أن يموت منها ، ثم يأخذ نفسه ويرفع دينارًا ثانيًا ، ويخاطبه بشوق ووله وهيام كأنه حبيب جاء من مكان بعيد ، ثم يغمسه في الزيت ويهوي به في فمه . يقول : فقلت : والله لن يأخذ مال البخيل إلا العيّار ، وسأكون عيّارًا هذا اليوم . يقول : فأوصدت عليه الباب ، وربطته في سلك ، وتركته ثلاثة أيام حتى اطمأننت أنه هلك، يقول: فجئته فإذا هو قد تحجر ويبس في فراشه، وقد ابتلع كومة الذهب الذي أمامه . يقول : فأخبرت الناس فحملوه وغسّلوه ، وهم يتعجبون لثقله . يقولون : ليس فيه إلا الجلد والعظم ما باله ثقيل . بعضهم يقول : من البخل ، والآخر يقول : من الذنوب ، وهم لا يعلمون السر الذي أعلم. يقول: فدفناه ووضعت علامة على القبر، فلما انتصف الليل أخذت معي الفأس والمعول ، ثم أخذت أحفر القبر ، ودفعت عنه التراب ، وأنا ألتفت يمينًا وشمالًا حتى لا يراني أحد ، ثم أزحت الحجارة عن اللحد ، فبان بياض الكفن ، فأخرجت سكينة ، وقطعت الكفن تجاه البطن ، ثم بقرت بطنه ، فإذا الذهب يتوهج على ضوء القمر ، يقول : فمددت يدي لآخذه ، فإذا هو حارٌّ كالجمر المستعر ، يقول : فصرخت ونزعت يدي ، وردمت القبر بالحجارة ، وردمت عليه التراب ، وخرجت أصرخ ، ما رأيت ألمًا مثله ، وغمستُ يدي في الماء البارد ، وظللت سنواتٍ أحس بهذه اللسعة تأتيني بين فترة وفترة ، أعوذ بالله من البخل وأهله .

قال تعالى : ﴿ الذي جمع مالًا وعدده . يحسب أن ماله أخلده . كلا لينبذن في الحطمة . وما أدراك ما الحطمة . نار الله الموقدة . التي تطلع على

الأفئدة . إنها عليهم مؤصدة . في عمد ممددة ﴾ [الهمزة : ٢ - ٩] .

كما أوصدوا على الذهب . ولم يخرجوه ، فكذلك توصد عليهم النار جزاءً وفاقًا .

الجواد كريم على الله وعلى الناس :

عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « بينا رجل بفلاةٍ من الأرض ، فسمع صوتًا في سحابة يقول : اسقِ حديقة فلان ، فتنحى ذلك السحاب ، فأفرغ ماءه في حرة ، فإذا شرجة من تلك الشراج قد استوعبت ذلك الماء كله ، فتتبع الماء ، فإذا رجل قائم في حديقته يحوّل الماء بمسحاته ، فقال له : يا عبد الله ما اسمك ؟ قال : فلان ، للاسم الذي سمع في السحابة ، فقال له : يا عبد الله ، لم تسألني عن اسمي ؟ قال : إني سمعت صوتًا في السحاب الذي هذا ماؤه يقول : اسقِ حديقة فلان ، لاسمك ، فما تصنع فيها ؟ قال : أمَّا إذ قلت هذا ، فإني أنظر إلى ما يخرج منها فأتصدق بثلثه ، وآكل أنا وعيالي ثلثا ، وأرد فيها ثلثا »[١].

هذا الذي يتصدق بثلث حديقته ، يأتي الماء - المطر - فيصب صبًّا في حديقته ، لا يتعداها ، « ما نقص مال من صدقة » والجزاء من جنس العمل .

عن عائشة - رضي الله عنها - قالت : قال رسول الله ﷺ : « أقيلوا ذوي الهيئات عثراتِهم إلا الحدود »[٢] .

وعن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - عن رسول الله ﷺ قال : « تجاوزوا عن ذنب السخي ، فإنَّ الله آخذ بيده كلما عثر »[٣] .

---

(١) رواه أحمد ومسلم عن أبي هريرة . ورواه الطيالسي وابن منده .

(٢) صحيح : رواه أحمد في مسنده ، والبخاري في الأدب ، وأبو داود ، وصححه الألباني في صحيح الجامع ١١٩٦ .

(٣) حسن : رواه الدارقطني في المستجاد من فعلات الأجواد ، والبيهقي في الشعب ، وابن الجوزي في الموضوعات .

مثلما أقالوا عثرات المنكوبين مرارًا ، فكذا يقيل الله عثراتهم ، والجزاء من جنس العمل .

سجـع :

قل للذين شغلهم في الدنيا غرورهم ، إنما في غدٍ ثبورهم ، ما نفعهم ما جمعوا إذا جاء محذورهم ﴿ **يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم** ﴾ . فكيف غابت عن قلوبهم وعقولهم .

أُخذ المال إلى دار ضرب العقاب ، فجعل في بوتقة ليحمى ليقوىٰ العذاب ، فصُفِّح صفائح كي يعم الكيُّ الإهاب ، ثم جيء بمَنْ عَنِ الهدى قد غاب ، يسعى إلى مكانٍ لا مع قوم يسعى نورهم ﴿ **يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم** ﴾ .

إذا لقيهم الفقير لقي الأذى ، فإن طلب منهم شيئًا طار منهم لهبُ الغضب جُذَى[1]، فإن لطفوا به قالوا : أغْنتكم ذا ، وسؤال هذا لِذَا ، ولو شاء ربك لأغنىٰ المحتاج وأعوز ذا ، ونسوا حكمة الخالق في غنى ذا وفقر ذا ، واعجبًا كم يلقاهم من غمٍّ إذا ضمتهم قبورهم ﴿ **يوم تُحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم** ﴾ .

يسأل عنها الجامع من أين اكتسب ؟ وسيأخذها الوارث منهم من غير تعب ، ألا إن الشوك له وللوارث الرُّطب ، أين حرص الجامعين أين عقولهم ؟ ﴿ **يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم** ﴾ .

لو رأيتهم في طبقات النار ، يتقلبون على جمرات الدرهم والدينار ، وقدْ غُلَّتِ اليمينُ مع اليسار ، لمّا بخلوا مع الإيسار ، لو رأيتهم في الجحيم يسقون من الحميم ، وقد ضجّ صَبُورُهم ﴿ **يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم** ﴾ .

---

(١) الجذوة : الجمرة الملتهبة بضم الجيم وتفتح ؛ جمعها جُذَى مثل مُدى وقُرى ، وتكسر أيضًا فتكسر في الجمع جذية وجِذَى (المصباح) .

كم كانوا يوعظون في الدنيا وما فيهم من يسمع ، كم خُوِّفوا من عقاب الله وما فيهم مَنْ يفزع ، كم أنبئوا بمنع الزكاة وما فيهم من يدفع ، فكأنهم بالأموال وقد انقلبت شجاعًا أقرع ، فما هي عصى موسى ولا طورهم ﴿ **يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم** ﴾ .

وبعد يا أخي ..

إن العقلاء واسَوْا بقدْر طاقتهم ، ولم يتناسوا قرب فاقتهم ، هذا لأن عادات السادات سادات العادات ، وشِيَم الأحرار أحرار الشيم ، أما البخيل بالذهب فمات وذهب ، وأما الكريم فعاش بعد الموت بما وهب .

كيف يحث البخيل على إعطاء جنسه ، وهو يبخل بالعطاء على نفسه ، البخيل يملأ الوِجار[1] . والجار جائع ، ويحفظ العَرَض والعرض ضائع ، البخيل مع الوجدان ذا عِوز ، كلما برز له سائلٌ أَرَز[2] ، مقفول الحاجبين أبدًا وقد ضاع المفتاح ، في أخلاقه قباح ، مجموعها عصارة لُوْم في قرارة خَبث ، فذاك ميت في حياته ، فإذا نشر كان الطيّ أصلح له ، بشرٍّ مال البخيل بحادث أوْ وارث .

فعجِّل الأوبة ، وبادر التوبة ، وسارع في غسل الحوبة .

يقول ابن القيم في قول الله تعالى : ﴿ **الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلًا والله واسعٌ عليم** ﴾ [البقرة : ٢٦٨] .

هذه الآية تتضمن الحض على الإنفاق ، والحث عليه بأبلغ الألفاظ وأحسن المعاني ، فإنها اشتملت على بيان الداعي إلى البخل ، والداعي إلى البذل والإنفاق ، وبيان ما يدعو إليه داعي البخل ، وما يدعو إليه داعي الإنفاق ، وبيان ما يدعو به داعي الأمرين .

---

(١) الوجار : البيت ، وأصله بيت الذئب .

(٢) أرز : انقبض وتجمّع وتثبت .

فأخبر سبحانه أن الذي يدعوهم إلى البخل والشح هو الشيطان ، وأخبر أن دعوته هي بما يعدهم به ويخوفهم من الفقر ، إن أنفقوا أموالهم ، وهذا هو الداعي الغالب على الخلق . فإن أحدهم يهم بالصدقة ، والبذل ، فيجد في قلبه داعيًا يقول له : متى أخرجت هذا دعتك الحاجة إليه ، وافتقرت إليه بعد إخراجه ، وإمساكه خير لك ، حتى لا تبقى مثل الفقير ، فغناك خير من غناه ، فإذا صوّر له هذه الصورة أمره بالفحشاء وهي البخل الذي هو من أقبح الفواحش . وهذا إجماع من المفسرين : أن الفحشاء هنا البخل ، فهذا وعده ، وهذا أمره ، وهو الكاذب في وعده ، الغارّ الفاجر في أمره . فالمستجيب لدعوته مغرور مخدوع مغبون . فإنه يدلي من يدعوه بغروره ، ثم يورده شر الموارد كما قيل :

دلَّاهُم بغرورٍ ثم أَوْرَدَهمْ إن الخبيثَ لمن والاه غرّارُ

هذا وإن وعده له الفقر ليس شفقة عليه ، ولا نصيحة له ، كما ينصح الرجل أخاه ، ولا محبة في بقائه غنيًّا ، بل لا شيء أحب إليه من فقره وحاجته. وإنما وعده له بالفقر وأمره إياه بالبخل ليسيء ظنه بربه ، ويترك ما يحبه من الإنفاق لوجهه ، فيستوجب منه الحرمان .

وأما الله سبحانه فإنه يعد عبده مغفرة منه لذنوبه ، وفضلًا بأن يخلف عليه أكثر مما أنفق وأضعافه ، إما في الدنيا أو في الدنيا والآخرة .

فهذا وعد الله ، وذاك وعد الشيطان ، فلينظر البخيل والمنفق أيّ الوعدين هو أوثق ، وإلى أيهما يطمئن قلبه وتسكن نفسه ؟ والله يوفق من يشاء ، ويخذل من يشاء ، وهو السميع العليم . عليم بمن يستحق فضله ومن يستحق عدله ، فيعطي هذا بفضله ، ويمنع هذا بعدله ، وهو بكل شيء عليم[1] .

---

(١) التفسير القيم ص ١٦٨ .